ISSN : **2602-618X**
EISSN: **2710-8031**

زاوي بن مناد وتأسيس إمارة غرناطة

Zawi Ben Manad and the founding of the Emirate of Granada

الدكتور بوخاري عمر، جامعة تيارت
OMAR.BOUKHARI@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2019/12/14 تاريخ القبول: 2020/01/07 تاريخ النشر: 2020/01/31

الملخص: حظي زاوي بن مناد فور دخوله الاندلس بمعية جموع من بربر صنهاجة، بالمكانة التي تليق بمقامه كقائد من سلالة بني زيري اصحاب افريقية، فقد خُصّ بمنصب الحجابة لدى الامويين، وازدادت مكانته السياسية والعسكرية، ابّان الفتنة القرطبية، حين قاد البربر في جبهات القتال الى جانب سليمان المستعين الذي تربع على كرسي الخلافة، وكافأ زاوي ومَن معه من البربر بالإمارة على البيرة وغرناطة. وهو من حدد موقعها اشرف على بناء دُورها وقصورها.

الكلمات المفتاحية: البربر، زاوي، غرناطة، الاندلس، إمارة .

Abstract: after his entering the Andalus with a group of Berber Sunhajah, Zawi ben Manad, gained an important position as a leader of the Beni Ziri dynasty , Ifrikia's owners. He was rewarded a high rank among the Umayads, and his political and military status increased during Granada's discord when he led the Berbers in fighting beside Sulaimane El-Moustaine who came to power and rewarded Zaoui and those who were with him from Berbers to rule Al-Bira and Granada and he was the planner and the builder of its houses and palaces.

Key words: Berbers, Zawi, Granada, Andalusia, Emirate.

مقدمة:

عندما اشرف عهد الحجابة العامرية على نهايته، كانت فلول البربر من صنهاجة برئاسة زاوي بن مناد، لا تزال حبيسة العدوة الجنوبية، إذ لم يؤذن لهم بالدخول كونهم ينتمون الى العصبة الحاكمة من بني زيري، مما يجعلهم محل استقطاب لبقيت البربر، وظلوا على هذه الحال الى ان تغيرت الظروف في الاندلس، فاصبح الامراء في حاجة الى هذا اللفيف الجديد من القوى الغربية، للوقوف في وجه معارضيهم من الاندلسيين انفسهم أو من الفئات الاخرى من المجتمع الاندلسي، وعندما حدثت الفتنة كان لبربر صنهاجة الدور البارز فيها، وكان لهم بعد ذلك، نصيبهم من الارض المقتطعة وهي مدينة غرناطة وما ولاها. وبناء على ما سبق وما سيسفر من

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تداعيات، نحاول الاجابة على الاشكالية المحورية لهذا الموضوع وهي تأسيس امارة غرناطة على يد زاوي بن مناد.

جواز بني زيري إلى الأندلس:

يرتبط عبور بني زيري إلى الأندلس بالأحداث التي شهدتها الأسرة الحاكمة من بني زيري، حيث اتفق أن ولي الأمر لأبن مناد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الملقب بناصر الدولة[1] على إفريقية سنة 386 هـ /1996م، وهو الأمير الزيري الثالث، بعد جده بلكين ووالده المنصور، الذي استصغره أعمامه وأعمام أبيه واستهانوه، فأشهروا في وجهه السلاح وقاتلوه، ولكنه انتصر عليهم، بعد حروب طويلة وقعت بينهم. وقد تألبت على باديس وبعض قبائل زناتة بقيادة فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي وزيري بن عطيه[2] الزناتي أمير الغرب، واستطاع باديس بفضل قوات جيشه بأن يتخلص من خصومه، حيث انتهت أيام فلفل بن سعيد على يد فتوح بن علي، وكما استطاع حماد بن يوسف العزيز بالله أن يقضي على عمه ماكسن بن زيري ومن معه، فقتل ماكسن وولداه محسن وباديس[3]

في هذه الظروف المدلهمة بخطوب الحرب والمواجهات، فكر زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي في العبور الى الأندلس بمعية أبناء أخيه ماكسن، حباسة وحبوس[4] الحديث عن عبور زاوي إلى الأندلس، يقودنا حتما الى التساؤل عن السبب الذي دفع زاوي إلى التفكير في العبور، وهو يعلم أن أعداءه من الزناتيين الذين قتلوا أباه، قد سبقوه إلى هذه الأرض وصارت لهم مع حكامها صلات ووشائج. هناك عدة فرضيات يمكن للباحث أن يحتملها، وقد صاغها إسماعيل العربي في التساؤلات التالية: هل كان هدف زاوي الاستشهاد أم المطالبة بثأر أبيه زيري بن مناد

1 ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب في العصر الوسيط، تحقيق أحمد مختار العبادي، ومحمد ابراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964 ص: 69.

2 زيري بن عطية: هو زيري بن عطية المغراوي بن عبد الله إبن تبادلت و هي أم زيري، بن محمد بن خزر الزناتي المغراوي دعا لهشام المؤيد وحاجبه ابن أبي عامر، ملك زناتة وغلب على جميع البوادي وكذا مدينة فاس وعلا أمر وأرتفع شأنه فاستدعاه المنصور واستقبله بالتكريم والتجلة وكان يوما مشهودا وكتب له العهد على جميع المغرب، إلا أن هذه العلاقة لم تبق على حالها، وفسد ما بينها من ود وحب شديد كما عبر عن ذلك ابن حيان، وذلك بسبب طموح زيري بن عطية للاستقلال ببلاد المغرب، مستهجنا لقب الوزارة الذي منحه إياه ابن أبي عامر، ومن يومها قطع زيري اسم المنصور في الخطبة على المنابر، مما أثار غضب المنصور فأعلن عليه الحرب، فاستبسل زيري مع جموع زناتة وكادت قوته أن ترد جيوش المنصور بقيادة ابنه عبد الملك لولى أن غدر بزيري فهات متأثرا بجروحه سنة 395هـ/1000م، ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص: 155-157-158، ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، تحقيق ج، س، كولان وليفي بروفنسال،ط1، دار الكتب العلمية ،بيروت، ج1، 252م.

3 ابن عذاري، نفسه، ج1، ص: 250-251-252.

4 ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، دار الكتب العلمية، ج1، ص: 294.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الذي لا يزال رأسه معلقا على جدار قرطبة؟ أم لمجرد محاولة اقتطاع إمارة له في الأندلس، بعدما عجز عن ذلك في إفريقية؟.[5]

إلا أن قراءة متأنية حول شخصية زاوي وحول تحركاته ومواقفه في الأندلس، تعطينا انطباعا قويا أن زاوي كان يبحث عن مسرح لذكائه وعبقريته السياسية[6] وهو في إفريقية قد نازع ابن أخيه في الإمارة لكنه فشل في مسعاه.

وهناك قرينة أخرى تجعلنا نستبعد رغبة الجهاد عند زاوي وهي أن هؤلاء الزيريون كانوا أبعد ما يكون عن أبسط أمور الشريعة فضلا عن طلب الشهادة، فهم كانوا بواسطة الشريعة يستطيلون على الناس بما شاءوا من الشتم والعبث[7] ومن هنا يمكنه القول أن زاوي لما لم يحقق طموحه في الملك في إفريقية كان له إلى الأندلس عزمة وركابا.

ومهما يكن من أمر، فإن زاوي بن زيري لجأ إلى جبل شنوة في المنطقة الساحلية الواقعة غرب شرشال، وظل يترقب بان يسمح له بالعبور إلى الأندلس، من قبل المنصور بن أبي عامر الذي تردد في قبوله[8] فهو لم يقبل أن يجمع بين فصيلين متناحرين منذ أمد بأرض العدوة، كما أن السماح لزاوي بالعبور سوف يثير عليه أقوام زناتة في العدوتين، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن المنصور لم يكن ليخفى عليه دهاء زاوي وذكائه، وظل حذرا ولم يسمح بذلك إلى حين وفاته.

وبمجيء المظفر عبد الملك بن المنصور، حصل نوع من الانفراج حيال بني زيري الراغبين في العبور إلى الأندلس، فكان لزعيمهم زاوي ما أراد، وجاز معه جمع كبير من أبناء قبيلته ومواليه ومن مقربيه ابني أخيه ماكسن، وحباسة وحبوس، واستقبلوا بحفاوة، وإجلال في قرطبة.[9]

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن بعض من أرخ لهذه الأحداث يذكرون أن عبور زاوي كان على عهد المنصور بن أبي عامر، وفي مقدمة هؤلاء الأمير عبد الله الزيري[10] وابن خلدون عبد الرحمان[11] وممن اخذ برأيهم من المؤرخين المعاصرين، كوكبة من المؤرخين وفى مقدمتهم، عبد

5 إسماعيل العربي، دولة بني زيري ملوك غرناطة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص: 22.
6 إسماعيل العربي، نفسه، ص: 23.
7 ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 263.
8 الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي ج1، ص: 133.
9 ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 263.
10 عبد الله بن بلقين ، كتاب التبيان، تحقيق أمين الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط، ص: 57.
11 ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، دار الكتب العلمية، 2002 بيروت، 1424، ج06، ص: 186.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الله عنان، وفي مقابل هؤلاء اخرون يرجعون زمن عبور زاوي بن زيري الى عهد المظفر عبد الملك بن منصور، ومن هؤلاء ابن عذاري المراكشي[12] ولسان الدين بن الخطيب[13] إلا انّه يذكر في موضع آخر على أن عبور زاوي وابنه جلال كان على عهد المنصور بن بلكين[14] الذي حكم افريقية بين 374هـ-386هـ / 984م-996م، وهي الفترة التي احتوتها حجابة المنصور بن أبي عامر 366هـ-392هـ/976م-1004م إلا أنه يستدرك هذه الأخطاء، ويذكر بصريح العبارة في كتاب الإحاطة قوله: «... أوجبت مخاطبة المظفر بن أبي عامر في اللحاق بالأندلس وإذن له في ذلك».[15]

ويضاف إلى هؤلاء ابن بسام الشنتريني الذي ذكر قدوم زاوي بشيء من التفصيل والتبيين، ومما جاء في معرض كلامه قوله: «وكان من أعظم من هاجر إليه منهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي ... وكان المنصور أيامه قد التوى في الإذن له بالدخول إلى الأندلس حذرا من دهيه ومكره وبعد صيته في المغرب».[16]

وعلى أية حال فإن البربر من بني زيري قد دخلوا أرض الأندلس، بسمت الأمراء وجلال الملك الذين اضطروا إلى مغادرته كفلول مغربية طالبة للأمان والاستقرار، وكانت هذه إحدى الأسباب التي جعلت إليهم العداء من قبل الأندلسيين.

يقول ابن بسام: «وكان شيخهم زاوي أول دخوله الأندلس يظهر أنواع البر والبشر للناس مالا شيء فوقه، وكان شأنه في الدهاء والمكر والخلابة[17] عجبا وكان يرجع في إقامة ما اعتاده من سعة إنفاقه إلى ما جاء به من بلده من عقود وذخائر فيبيع من ذلك النفيس، وربما افترى من ذلك عبد الملك فيزيد في حسرته وكان عبد الملك راغبا في رفعة منزلته، وولاه الوزارة أرفع خطط أصحاب السلطان بالأندلس ووصل إليه الرسول بالصك في ذلك وطلب أن يصله عليه، فقال: لو جئتنا بمال لأسهمناك، وإنما خطتنا الإمارة لا الوزارة، وأقلامنا الرماح وصحائفنا لأجساد».[18]

12 ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 263.
13 لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص: 227.
14 نفسه، ص: 68.
15 لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، 294.
16 ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العصرية، بيروت، 1998، ج04، ص: 50.
17 الخلابة: خلب الشيء خلبا أخذه بالمخلب، وخلب فلانا خلبا وخلابة خدعه وفتن قلبه، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ج م ع ، ط4، 1425هـ-2004م، ص: 247.
18 ابن بسام، المصدر السابق، ج04، ص: 51.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وتحت وطأة المعاناة كانوا يتناجون متذمرين ومنتقدين سياسة عبد الملك المظفر الذي كانت تصله بعض أقوالهم عن شخصه فيتغاض عن ذلك.[19]5

لم يكن بني زيري كغيرهم من البربر في نظر خلفاء بني أمية، لكون بني زيري أصحاب ملك في بلاد المغرب، فلذاك نالوا حظوة واحترام، فقد خصّ أميرهم زاوي بن زيري بمنصب الحجابة[20] وهو منصب حساس قلما يناله رجل من العدوة، وهذا إن دلّ على شئ فإنما يدل على المكانة التي صارت لصنهاجة أيام الدولة العامرية .

ظلّ زاوي ومجموع البربر على هذه الحال إلى أن اختل بناء الخلافة[21] بظهور محمد بن عبد الجبار في الفتنة، الملقب بالمهدي، هذه الشخصية التي قامت بخلع الحاجب عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر [22] ثم قتله. لقي البربر بقيادة زاوي بن زيري فرحتهم في المشاركة في هذا الانقلاب الذي سوف يزيد من مكانتهم، كشريحة بربرية، مساهمة في نظام الحكم الجديد.

بعد مقتل هشام بن سليمان لم ييأس البربر وعلى رأسهم زاوي بن زيري من معاودة الالتفاف حول شخصية أموية تعيد لهم الاعتبار.

استجمع البربر قواهم واندفعوا عن بكرة أبيهم حتى انتهوا إلى فحص هلال، فنهض زاوي بن زيري خطيبا فيهم، وحثهم على اتحاد والتماسك، وحتى يجسد معانيه، وينزلها من حيزها النظري إلى حيزها التطبيقي، ضرب لهم مثلا بأرماح خمسة جمعها مشدودة، ودفعها الى أشدّ من كان حاضرا منهم، وقال أجهد نفسك في كسرها واغمزها، ففعل الرجل فلم يقدر على ذلك، ثم دعاه إلى حلّها ومعالجتها رمحا رُمحا فلم يصعب عليه كسرها فأقبل زيري على جماعته فقال: «هذا مثلكم يا برابرة إن جمعتم لم تطاقوا، وإن تفرقتم لم تبقوا، والجماعة في طلبكم فانظروا لأنفسكم وعجّلوا»، فقالوا: نأخذوا بالوثيقة ولا نلقي بأيدينا إلى التهلكة.

فقال لهم زاوي بن زيري: بايعوا لهذا القرشي سليمان يرفع عنكم الأنفة في الرياسات، وتستميلون إليه العامة بالجنسية ففعلوا.

19 نفسه، ج03، ص: 263.

20 لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 294.

21 نفسه، ج1، ص: 294.

22 الحميدي أبو عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، دار الكتب العلمية، ،بيروت، ص: 30.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

فلما تمت البيعة قال لهم: إن مثل هذا الحال لا يقوى على أهل الاستطالة، فيقيد له رئيس كل قبيلة منكم، قبيلة يتكفل بها، وأنا الكفيل بصنهاجة، واجتمع كل فريق على تقديم سيده، فاجتمعت صنهاجة على كبيرها زاوي.[23]

إن المتأمل في خطاب زاوي بن زيري يدرك أنه أراد من وراء ذلك أن يحقق شيئين اثنين:

- جمع الأجزاء المبعثرة للبربر بمختلف انتماءاتهم العصبية الزناتية والصنهاجية، وهذا من شأنه يقوي من عضدهم، حيث يبين لهم بصورة تطبيقية إنهم إن بقوا ملتحمين فإنه يصعب على أعدائهم أن ينالوا من شوكتهم، وإن هم تنازعوا ذهب ريحهم، فحثهم على مبايعة سليمان، فهو ضمان لهم كي يبقوا قوة فاعلة في المجتمع الأندلسي، وتسري عليهم الامتيازات التي نالوها على عهد المنصور بن أبي عامر عندما قاموا بالأدوار الريادية في حروبه ضد خصومه.

- تتحقق لزاوي بن زيري الزعامة على البربر قاطبة ويمكنه ذالك من بناء قوة بربرية ويتشكل لهم الكيان داخل الاندلس.

وعلى هذا الأساس تمت مبايعة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمان الناصر سنة 400هـ/1009م ولقبوه بالمستعين وتحركوا به نحو قرطبة، لا يلوون على شيء، وعاثوا بها فسادا وسلبوا محاسنها ومحاسن أهلها[24] وباعتلاء سليمان المستعين كرسي الخلافة بقرطبة، تعرض الأندلسيون لاضطهاد البربر[25] مما حدى بأهل الثوار إلى مناشدة البربر بالمصالحة، فكتبوا باسم الخليفة هشام المؤيد، إلى زاوي بن زيري يناشدونه بعقد الصلح معه مقابل منحه ما يشاء من مال وولاية، ولكن خابت مساعيهم ولم ينالوا استجابة[26].

حيث كان جواب زاوي بن زيري على النحو التالي: «أما نقض عهد سلطاني ومخالفة أصحابي فلا سبيل إليه وأما السعي في الإصلاح فإني متمادي في تأليف كلمة المسلمين فوالله لا قصرت فيه حرما مني على ما يقر بني إلى الله من قطع الفتنة وحقن الدماء وإصلاح ذات البين».[27]

لم يكد سليمان يستقر بقرطبة حتى فاجأه المهدي، فاضطر إلى مغادرة قرطبة بعد موقفه عقبة البصر 05 شوال 400هـ / 1010م فانتشر البربر في الأرض ينهبون ويقتلون في ثورة من الجنون الجماعي، وفي المقابل قام أهل قرطبة بالقبض على حبّاسة بن ماكسن ابن أخ زاوي بن

23 ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة، ج1، ص: 294.
24 ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة، ج1، ص: 294، المقري احمد ابو العباس، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ج1، ص: 482.
25 الحميدي، المصدر السابق، ص: 31.
26 ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 108.
27 نفسه، ج3، ص: 108.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

زيري سنة 402هـ / 1011م وذلك حين اغتنمه عناصر من قرطبة وعددهم سبعين رجلا، وكان هو في أربعة من البربر فطعن طعنة تجدّل منها وسقط صريعا، وهرب عنه أصحابه واخذ أسيرا فلما عرفوه قطعوه وتهادوا لحمه فأكلوه حقدا بما فعله لأهل قرطبة[28] وكان ذلك سببا في إثارة زاوي بن زيري وابن أخيه حبوس بن ماكسن فجزعوا لذلك جزعا شديدا، وامتلأت نفوسهم حقدا على القرطبيين، والتفوا حول سليمان المستعين، وتقوى عضدهم بهم واقتحم قرطبة سنة 403هـ/1012م[29] وسعى إلى إجراء مكافآته على من وقف إلى جانبه في استرجاع عرشه من محمد بن هشام المهدي، وكانت البيرة من نصيب زاوي إلى جانب خمس رؤساء من البربر منحت لهم الولايات التي كانوا انحازوا إليها أيام الفتنة[30]

نشاط زاوي السياسي والعسكري:

كانت مدينة البيرة مأهولة بسكان مسالمين، ليس لهم من وسائل الدفاع ما يجعلهم في مأمن من غوائل الفتن التي كانت تشهدها الأندلس، وكانوا على درجة كبيرة من الجبن والاستكانة لا يقدرون على قتال من اعتدى عليهم .

فلما قدم إليها زاوي بن زيري لم يترددوا في أن يمنحوه بلادهم، يقول صاحب التبيان: «وكان أهل البيرة في بسيط من الأرض وكان بهم من الغش بعضهم لبعض ما إنّ الرجل منهم ليتخذ بإزاء داره مسجدا وحماما فرارا من جاره، ولا يرجعون إلى طاعة ولا حكم وال، وكانوا مع هذا من أجبن الناس وأخوفهم على مدينتهم لا يستطيعون على قتال احد ولو كان الذباب، إلا بمن يحميهم ويذبّ عنهم، فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس، وأنها أضرمت نارا، وتوقعوا أن يتخطفهم الناس، وجهوا إلى زاوي المذكور، شاكين ممّا هم فيه، ويقولون: إن كنتم جاهدتم قبل اليوم، فهذا الجهاد أكد عليكم: أنفس تحيونها وديار تحمونها وعزّة تأوون إليها ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا: لكم منا الأموال والسكن، ولنا منكم الحماية والذبّ عنا».[31]

وافق زاوي على هذا العرض، ونزل مع ابن أخيه حبوس بن ماكسن بن زيري برفقة حشود من البربر، واستجابت له معاقل أخرى مثل جيّان، وحصن آشر، فلما استتب له ولابن

28 نفسه، ج03، ص: 11-112.

29 ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 112.

30 ابن خطيب لسان الدين، أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ص: 119.

31 عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 59.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أخيه الأمر تقارع مع ابن أخيه، فكان سهم البيرة من نصيب زاوي، وجيّان وحصن آشر من نصيب ابن أخيه، واتفق جميعهم على حماية كل منهما الآخر حالة الاعتداء[32].

لم يكد زاوي بن زيري يستقر في مدينة البيرة، حتى بدأ أهلها يتوجسون منه ومن أخيه حبوس بن ماكسن من أن تقوى شوكتهم، ولما علم بذلك زاوي وحاشيته جمعوا أهل البيرة، وصاح فيهم قائلا: «نحن لم نأت لفساد دياركم ولا قهرناكم على استيطانها وإنما كان ذلك على اختياركم لنا، وهذه الفئات مقبلة لطلبنا: فإن استوثقنا منكم دافعنا عنكم، وإن كانت الأخرى، فأعلمونا نمضي عنكم على أجمل وجه فلم نعدم الخير بسيوفنا» فأجابه أهل البيرة بعد أن أيقنوا أن عدوهم على الأبواب فاغر فاه ليلتهمهم : «اثبتوا في قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم، فنحن رعيتكم الطائعة وأسيافكم القاطعة».

عندئذ رأى زاوي أنه من حسن التدبير أن يلجأ إلى معقل آخر يجعل منه قاعدة للارتكاز وموقعا للانطلاق، فوقع اختياره على بسيط جميل قد جمع الأنهار والأشجار، وجميع ما يليه من البلد وتأتيه المياه من وادي شنيلي[33] المنحدر من جبل شلي[34] ووقعت أعينهم على الجبل الذي فيه الآن مدينة غرناطة التي تتوسط البلد كله، وأنه في وسط النعم وجمهور الرعايا، ومتى ما أراد العدو الدخول إليه لم يطق له إحصارا ولا منعة داخلا وخارجا فيه، فكل ما يحتاج إليه الساكن من مرافق، فشمّر الجميع عن سواعدهم وشرعوا في بناء مدينتهم من أندلس وبربر، وخربت البيرة حتى لا تكون مطلبا لأعدائهم[35] إلا أن ابن سعيد صاحب المغرب، يشير إلى أن تخريب مدينة البيرة كان متعمدا من البربر أصحاب زاوي الذي أنكر هذا الفعل: «كان داهية البربر، خرب أصحابه مدينة البيرة وعانوا فيها، واظهر هو الإنكار لذلك والعدل وقام بالمملكة»[36] يبد أن صاحب التبيان يشير إلى أن تخريب مدينة البيرة كان بالاتفاق مع أهل البيرة وجاء في نص التبيان قوله: «فرضي القوم من قولهم، وزاد ذلك فيهم رغبة، واتفق رأي الجميع أن يتخيروا

32 نفسه، ص: 60.

33 شنيلي: ويعرف بأنهم غرناطة بفتح الشين أو كسرها أو يسنجل كما يعرف النهر باسم فلوم المشتقة من اللاتينية وهو ينبع من جبل الثلج قال به المقرى : (ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من التمرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها، وفي بعض كلام لسان الدين: (وما يصر تفخر بنيلها وألف منه في شنيلها)، ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الانفس، نشر لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، 1375/ 1955، ص: 283، المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 184.

34 شيلر: هو جبل الثلج هو الاسم الذي أطلقه الأندلسيون على جبال sierra nevada والاسم مشتق من اللاتيني mons, salarius لان أشعة الشمس تظل ساطعة على قممها طوال السنة، وانعكس هذا التجلى على مدينة غرناطة فنعمت بطيب الهواء و البرودة المعتدلة، ابن غالب، نفسه، ص: 283، المقري، نفسه، ج1، ص: 148.

35 عبد الله بن يلفين، المصدر السابق، ص: 60-61.

36 ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1998/1413، ج1، ص: 86.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

لأنفسهم جبلا منيفا ومعقلا شامخا، يبنون فيه ديارهم، ويرحلون إليه بقلتهم وكثرتهم ويجعلونه القاعدة ويخربون له البيرة المذكورة».[37]

ظل زاوي في غرناطة محتفظا بلقب الحاجب، إلا أن علاقة مع قرطبة شهدت نوعا من الفتور، وظل على هذه الحال إلى أن شرع علي بن حمود في الوثوب محل الخلافة في الأندلس، بالاتفاق مع الفتيان العامريين، فلم يتردد زاوي بالانضمام إلى هذه المجموعة للإطاحة بنظام المستعين، وبعد إعداد العدة، زحفوا نحو قرطبة، ولما بلغوا غرناطة انظم إليهم زاوي بن زيري على رأس جيش من صنهاجة، و وجدّو في السير إلى أن وصلوا الى مشارف قرطبة، وهناك خرج إليهم سليمان فشبّ قتال بين الطرفين انتهى بهزيمة سليمان، ودخول على بن حمود قرطبة سنة 407هـ-1016م.[38]

ظل زاوي على ولائه للحموديين، إلا أن في المقابل كانت الأمور تجري في غير صالح علي بن حمود، حيث أن الفتى خيران العامري الذي استقدمه بالأمس هو الذي قلب له ظهر المجن، وشرع في البحث عمّن هو أصلح منه للخلافة، وكان هذا التحول نابعا منذ أن طمح خيران في أن يجد هشام المؤيد حيًّا، فلما لم يجده استراب من علي بن حمود[39]وفي هذا يقول ابن الأثير: «ثم إن خيران أظهر الخلاف عليه لأشياء منه انه كان طامعا أن يجد المؤيد فلم يجده، ومنها انه نقل إليه أن عليا يريد قتله فخرج عن قرطبة واظهر الخلاف عليه».[40]

فدفعه حقده إلى البحث في بقايا بني أمية عن بديل كفء يصلح لإدارة شؤون الخلافة، فدلّ على عبد الرحمان بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمان الناصر الأموي، الذي كان قد خرج إلى شرق الأندلس، فاجتمع له أكثر أمراء الطوائف، وفي مقدمتهم خيران العامري المتحمس لإمرته، ومنذر بن يحي التجيبي أمير سرقسطة والثغر الأعلى، وإسماعيل بن عبد الرحمان بن ذي النون صاحب طليطلة، وأجمعوا أمرهم على الزحف على قرطبة بقيادة المرتضى لينصبوه خليفة ويزيحوا القاسم بن حمود[41] وجعلوا موعدهم مدينة شاطبة.[42]

---

37 عبد الله بن بلقين، نفسه، ص: 61.

38 ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 117، ابن خطيب، المصدر السابق، ص: 121، خالد الصوفي، المرجع السابق، ص: 202.

39 ابن الخطيب، نفسه، ص: 130.

40ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروتج06، ص: 617.

41 ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 283، ابن الأثير نفسه، ج07، ص: 617.

42 شاطبة: مدينة جليلة متقنة حصينة لها قصبتان ممتنعتان، وهي كريمة البقعة كثيرة الثمرة عظيمة الفائدة طيبة الهواء، ذكر القزويني أهلها بالشر والظلم والتعدي، قال صفوان بن إدريس المربي في وصف شاطبة.

شاطبة الشرق شردار ليس سكانها فلاح

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

فلما اجتازوا على بلنسية منعهم صاحبها من الدخول، فلما اجتمع خيران ومنذر بالمرتضى بشاطبة، أشارا عليه باصطحاب مبارك معهم للغزو فامتنع لذلك، وآثار أن يبقى مبارك في بلسية لجمع الأموال وإرسالها إليهم، فحقدا على المرتضى واتفقا على الغدر به، فأشارا عليه بالهجوم على غرناطة التي كان فيها مهلكه[43]

وعن هذه الجفوة بين منذر التجيبي صاحب سرقسطه ،وخيران العامري من ناحية، والمرتضى المرواني من ناحية أخرى، يورد لنا المقرى نصا في غاية الأهمية قوله: «فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نية منذر وخيران على المرتضى، وقالا: أرانا في الأول وجها ليس بالوجه الذي نراه حين اجتمع إليه الجم الغفير، وهذا ماكر غير صافي النيّة، فكتب خيران إلى ابن زيري الصنهاجي المتغلب على غرناطة، وهو داهية البربر، وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خذّل عن نصرته الموالي العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور فأصغى ابن زيري إلى ذلك».[44]

نجح خيران العامري في تأجيج الطرفين وجرهما إلى المواجهة، وهو يعرف مسبقا بعد حبك المؤامرة، أن نهاية المرتضى قد أزفت، وابتدأت فصول المواجهة بأن دعى المرتضى زاوي على طاعته، فلما فرغ زاوي من قراءة كتاب المرتضى خاطب ابن أخيه حبوس من ماكسن فدعاه للقدوم عليه، فأتاه بعسكر ضخم، وكان قوام جيش المرتضى أربعة ألاف مقاتل.[45]

فلما أحس البربر بجدية الموقف: «اعصوصبوا بأميرهم زاوي كبش الحروب، فأحكم لهم التدبير والدولة تسعره، والمقدار ينجده، وحملت عنه في تلك الحروب حكايات بديعة».[46]

أمسك زاوي الكتاب وأمر كاتبه أن يقلبه ويكتب على ظهره وأن لا يزيد شيئا إلا ما يملى عليه فكتب:﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[47] فلما ورد الجواب على المرتضى عجب وأصحابه وقالوا: «إن هذا الرجل يأبى الطاعة لنا، إلا أنه واثق بنجدته، وبمن معه، أو موطن على الموت أو معجب محيّن».[48]

الظلم عند الورى حرام وإنه عندهم مباح

القزويني زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ص: 539، الحميري عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ص: 337.

43 ابن الأثير، نفسه، ج07، ص: 617.

44 المقرى التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 485.

45 عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 62.

46 ابن بسام، ج1، ص: 283.

47 القرآن الكريم، سورة التكاثر.

48 عبد الله بن بلقين، نفسه، ص: 62.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

فأرسل إليه المرتضى كتابا ثانيا يقول فيه أقد جئتك بجيمع أبطال الأندلس وبالفرج فماذا نصنع وختم الكتاب بهذا البيت:

إنْ كُنتَ مِنّا أَبشرْ بِخيرٍ أَو لاَ فأيْقنَ بِكلّ شَّر[49]

فأمر زاوي الكاتب أن يكتب في ظهره: :﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فازداد حنقه وغيضه، ويئس منه، فآثر المواجهة، وركب المرتضى رأسه وسعى إليه في تعبئة محكمة[50] فأمر زاوي ضده بالثبات وترك الطيش فرد عليه الجميع في كلام طويل: «... إن موتنا في ملاقاتهم بعد إبلاء العذر أحب إلينا من تغلبهم على مدينتنا».[51]

ودارت رحى المعركة، ونشب القتال بين الطرفين، ونترك الأمير الزيري عبد الله بن بلقيس يصف لنا وقائع هذه المعركة في سياق تاريخي رائع « فخرجوا إليهم بأنفس بريئة، وعلى الموت موطّنة، وقلوب حنقة وللموت طالبة فلم يكن إلا كصفقة بالكف على الكف حتى ولّوهم الأدبار، وانهزموا أمامهم مذعورين يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم، لا يلوي منهم احد على صاحبه واتبعتهم صنهاجة، وانبسطت عليهم أيدي البربر، يقتلون منهم نهمة أنفسهم ويأخذون أموالهم وما تركوه من أسلحتهم، حتى امتلأت من ذلك أيديهم وكانت تلك الوقيعة أول ظفر ثبتوا به في أوطانهم، وهابهم الناس وانقادت لهم الرعايا، وتوطد ملكهم بغرناطة، وطاعت لهم أكثر بلاد أعدائهم المهزومين».[52]

ويستنتج من هذه المعركة أن القلّة التي قادها زاوي بن زيري من البربر وكان عددها ألف فارس، حققت نصرا مؤزرا على أعدائهم الأندلسيين وكان عددهم أربعة ألاف، وهذا راجع إلى التماسك والانسجام والروح القتالية التي أبداها زاوي إلى جانب مواقفه الشجاعة في الرد على رسائل المرتضى، في حين أن جيش الأندلسيين كان مهزوزا من داخله، ففي الوقت الذي كان خيران العامري يزين للمرتضى القضاء على الوجود البربري بغرناطة كان يجري مرسلات سرية مع زاوي بن زيري يعده بالانسحاب بالعامريين أثناء المعركة.[53]

وهكذا انتهت المعركة بسقوط الخليفة المرتضى الذي كان قد أدى كثيرا من الشجاعة في القتال، حتى اضطر إلى الفرار لما تخلى عنه أصحابه، ولاحقوه وقتلوه غدرا.[54]

49 المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 485.
50 ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 283
51 عبد الله بلقين، المصدر السابق، ص: 62.
52 نفسه، ص: 62.
53 المقرى التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 485.
54 ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 127.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وفور انتهاء المعركة كتب زاوي بن زيري إلى الخليفة القاسم بن حمود، يبشره بالنصر ويشرح له تفاصيل المعركة ويعرض عليه نصيبه من الغنيمة ،ومنها سرادق المرتضى وقد رأى القاسم أن يعطي هذا الانتصار حقه من الإعلان والدعاية، فضرب السرداق المرتضى على نهر قرطبة ودعى إليه الأعيان وعليه القوم من الأندلسيين وشاهدوا بأمّ أعينهم وقلوبهم تتقطع حسرة، لما عاينوه من أسلحة البربر يقول ابن حيان: «فركدت ريح المروانية من ذلك الوقت يقتل من نجم منهم في أطراف الأرض، وأيس الناس من دولتهم، ألوى الخمول بجملتهم فتقطعوا في البلاد ودخلوا في غمار الناس،.وامتهنوا واستهينوا».[55]

وفي هذا الجمع أنبرى ابن الحنّاط[56] بقصيدة يمدح فيها القاسم بن حمود، ويذكر بعض وقائع هذا النزال، ودور خيران ومقتل المرتضى، ومما جاء فيها:

لك الخير خيران إن مضى لسبيله وأصبح ملك الله في ابن رسوله
وفرّق جمع الكفر واجتمع الورى على ابن حبيب الله بعد خليلــه
كتـائب من صنهاجة وزناتــة تضايق في عرض القضاء وطوله
وولى وأبـقى منذرا من ورائــه يقيم لأهل الغدر عذر نكولــه[57]

رحيل زاوي إلى إفريقية:

بالرغم من الانتصار الذي أحرزه زاوي بن زيري على الأندلسيين وما ترتب عن ذلك من علو مكانته بين البربر، وذيوع هيبته بين الأندلسيين إلا أنه نظر بعين العقل إلى تلك التحولات التي تشهدها الأندلس والأيام المتقلبة فيها، والأحداث المتسارعة، فهو وقومه البربر لا محالة مستهدفون من قبل الأندلسيين فهو نفسه قال عندما هم بالرحيل إلى بلده.

«قد علمت وأيقنت أن هذا يكون دأبهم أبدا، وإن كنا قد منحنا الظفر في أول صفقة لم نؤمنهم على أنفسنا وديارنا كل حين! وهم إن قتل منهم واحد خلفه ألف، مع ميل جنسيتهم من الرعايا إليهم، فتكون الزيادة فيهم والنقصان منا! ولا يموت لنا نحن أحد ونخلفه أبدا!»[58].

55 ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 284، المقرى، المصدر السابق، ج1، ص: 486.

56 ابن الحناط: هو أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الكفيف، زعيم من زعماء العصر ورئيس من رؤساء النظم ولا نثر في ذلك الأوانه، وكان متقدما في الأدب والبلاغة، وشعره كثير مجموع مدح الملوك والرؤساء، وكان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلامية، عالما بالأفلاك والهيئة حاذقا بالطب والفلسفة ماهرا في العربية، لا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الاستنباط وتتطيب عنده الأعيان والملوك والخالصة.
الضبي بن عميرة، بغية الملتمس، تاريخ رجال اهل الاندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ص: 75، ابن بسام، نفسه، ج1، ص: 273.

57 القصيدة ينسبها ابن بسام إلى ابن الحناط، ج1، 282، والمقرى إلى ابن ماء السماء، ج1، ص: 486، أما ابن عذاري فلا ينسبها لأحد، ج03، ص: 130.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

يكاد يتفق معظم المؤرخين على السبب الذي أرغم زاوي على الرحيل إلى بلده القيروان، ولم يمض على انتصاره على الخليفة المرتضى المرواني وأنصاره من الأندلسيين سوى وقت قصير، وهو خوفه من ردة فعل هؤلاء الأندلسيين[59] ،الذين بقيت هذه الهزيمة شوكة في حلوقهم، وهم متيقنون أن هزيمتهم لم تكن عن ضعف منهم، أو لقلة عدد أو عدة، وإنما عن تخاذل أمراء الأندلس عن نصرة المرتضى والغدر به، فأيقن زاوي أنهم لا محالة مجتمعون للإيقاع به وبقومه البربر، ولذلك أوضح زاوي لأتباعه البربر، أن الانتصار على هؤلاء الأندلسيين في جولة أخرى هو قريب من المستحيل، وأوضح لهم أن أعدادنا قليلة، وأنه إذا قتل منهم واحد خلفه ألف، وإن الجنسيات المختلفة في الأندلس، مهيأة للانضمام إليهم لاعتبارات كثيرة، وظن زاوي أنه استمال بخطبته هذه الفلول من البربر إلا أنهم لم يستجيبوا له، فخرج عنهم مغاضبا لم يثنه احد عن عزمه».[60]

وقد عد ابن بسام إقدام زاوي على الرحيل من أغرب الأخبار وأعجبها، إذ كيف يعقل لرجل أنزوي في جنوب الأندلس وقد أحاطت جموع البربر، وهو حديث عهد بالانتصار على المرتضى، كيف له أن يعتزم الرحيل، أتى بلد قد غادره منذ عقدين وقد انهارت فيه عروش، وانمحت فيه رسوم أولئك الذي كان زاوي يعرفهم.

يقول ابن بسام «فكان من أغرب الأخبار في تلك الدولة الحمودية، انزعاج ذلك الشيخ الباقعة زاوي بن زيري عن سلطانه، ولفظه لما كان يلوكه من فلذة كبد الأندلس، أرض البيرة بأثر الفتح العظيم الذي أتيح لع على المرتضى ومن كان معه من عساكر أهل الأندلس. فأخذ في عبور البحر حين صفا العيش واحضر عوده، ووقم العدو وفل غربه»[61].

وفي موضع آخر ينتقل بنا كل من ابن بسام وابن عذاري إلى نص في غاية الأهمية يرويانه عن ابن حيان:

«وحدّثت في السبب المزعج للذي كان لزاوي يومئذ في ارتحاله وذلك أنه لما أنهزم المرتضى قال زاوي لقومه كيف رأيتم ما قد خلصنا منه فقال عظيم قال فلا تتناسوه وتغالطوا نفسكم انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا إنما حده مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا فإني رأيت ذلك من يوم نزولهم ولذلك كنت أقوي أنفسكم وقد نجّانا الله منهم

58 عبد الله الزيري، المصدر السابق، ص: 63.
59 ابن خلدون، المصدر السابق، ج06، ص: 239.
60 عبد الله بن بلقين، نفسه، ص: 63، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 128، ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 285.
61 ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 286.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ومضى القوم ولم يقدموا إلا رئيسهم واستخلافه هيّن عندهم، ولست آمن عمودهم جملة إليكم فيما بعد فلا يكون لنا قوام بهم، فالرأي الخروج عن أرضهم واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة والرجوع إلى الجملة التي انفصلنا عنها كانفين للعيال والذرية مباعدين لما وراءنا من زناتة أعداءنا الذين لا يغفلون عنا ،لاسيما وقد قرفنا قومهم وثبتنا أحقادهم المدفونة بيننا، فإن فزعوا لنا على قلّة عددنا أو ظاهروا علينا الأندلس وقعنا منهم بين الحي أسرف مظلمون، وها أنا قد أديت لكم النصيحة وأنا راحل عن الأندلس فمن أطاعني فليرحل معي، فلم يساعده أحد من أهل بيته فرحل من المنكب واستوطن ابن أخيه غرناطة بعده وأورثها عقبه»[62].

ومع ما قدمه زاوي من الحجج والبراهين لاستمالتهم، لم يهضم البربر طرح زاوي رغم ما يكنه هؤلاء لزعيمهم زاوي من احترام وتجلة، وليس البربر فقط من امتنع عن الرحيل مع زاوي، بل حتى أولاده عارضوه واعتبروا ذلك سذاجة وسخافة في الرأي، فقد انبرى أحد أولاده، يسوق له الكلمات والأدلة كي يثنيه عن عزمه، وفي هذا يقول عبد الله بن بلقيس: «وكان لزاوي بنون يعدل كل واحد منهم ببدنه مائة فارس في نجدته وقوة بأسه ورأيه: منهم بلقين بن زاوي، فأعاب هذا الرأي على أبيه، وقال له: بنيت لغيرك فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضرا لغائب! واثبت بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقة وإشراف من نفسك على الهلاك! فقال زاوي: نستخلف على المدينة من شيوخ تلكاتة الموثوق بهم في المهمات من يثقفها وينوب منابي فيها حتى أباشر بنفسي حال القيروان وكيفية دولتها فإما أن يتهيأ غرضنا وإلا انصرفنا إلى مركزنا»[63].

إن المتأمل في النصوص التي ساقها المؤرخون حول رحيل زاوي بن زيري عن غرناطة يدعون إلى الوقوف مليا أمهما ويجعلنا نستخلص العديد من النوايا الخفية التي أراد زاوي أن يحققها، ويتجلى ذلك فيما يلي:

- أراد أن يجر جموع البربر إلى مرافقته إلى إفريقية لمناصرته في الاستيلاء على عرش أسلافه بعد أن تبين له استحالة الوصول إلى سدة الخلافة في الأندلس.

- طمع زاوي بعرش القيروان، بعد وفاة مليكها باديس واستخلافه من قبل ابنه الطفل المعزّ بن باديس[64] فشرهت نفسه إلى تلك الولاية، وعزم على النهوض إليها، ولم يصده عن عزمه

62 نفسه، ج1، ص: 286-187، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 128-129.

63 عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 63.

64 المعز بن باديس: بويع المعز يوم الاثنين لثلاث خلون من ذي الحجة سنة 406هـ/1015م، وعمره يومئذ ثمانية أعوام، واستنابه ابن عمه كرامة بن المنصور حتى يلحق الولد بدار الملك، وجلس للعزاء، ثم ركب الموكب وبايعه الناس وأخذ يركب كل يوم ويطعم الناس بين يديه ترحما على أبيه، وكان المعز أول من صرف دعوة العبيديين إلى غيرهم من بني العباس وأزال أسماءهم من السكة في سنة إحدى وأربعين ونفس فيها: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلا يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

كما أسلفنا لا البربر الذين أبلوا معه البلاء الحسن في حد أعدائهم سواء أيام الفتنة أو عندما زحف عليهم الأندلسيين لقيادة المرتضى، ولا أبناؤه الذين عملوا ما في وسعهم لثنيه عن المغادرة، وهذا ما يفسر مدى شراهة زاوي في الوصول إلى الحكم مهما كان الثمن.

ويمم زاوي بن زيري نحو القيروان ليتدارك الأمر قبل فوات الأوان، واستخلف مكانه بغرناطة بعض شيوخ قومه الذين يثق بهم، ليقوموا مقامه فيها، ريثما يرى كيفية مخرجه من القيروان، واستحلفهم ألا يدخلوا عليه ابن أخيه حبوس بن ماكسن بن زيري ولا أحد غيره، وقيل أنه استخلف مكانه ونآ بن زاوي، فظعن ونآ لأهل غرناطة وأساء السيرة فيهم فبعثوا إلى حبوس من بعض الحصون لتولى أمر غرناطة قبل فوات الأوان فبادر إليهم، ونزل بغرناطة، وبايعوه، فملكها واستند بها»[65].

وفي رواية لابن الخطيب: «ولهول ما عاينه زاوي من اقتدار أهل الأندلس في تلك الحروب وجعاجعهم وإشرافهم على التغلب عليه، هان سلطانه عنده بالأندلس، وخرج عنها ناظرا إلى عاقبة أمره، ودعا لجماعة من قومه لذلك، فعصوه وركب البحر بجيشه وأهله ولحق بإفريقية وطنه»[66]. وفي موضع آخر يورد ابن بسام نقلا عن ابن حيان أن أحد أبناء زاوي بن زيري وهو حلالي ابنه لم يتبع أباه عندما اعتزم الرحيل، وبقي بغرناطة أياما لتدبير حاجاته في تهيئة الأجواء لاستخلاف أبيه، وقد دبر مع الراحلين من بني عمّه القبض على قاضي البلد ابن أبي زمنين والمشيخة الموافقة لأبيه إلى المنكب إذا رجعوا إلى ديارهم ليأخذ أموالهم، فاهتدى أبو زمنين إلى المكيدة، وجدّ في السير إلى حبوس الذي كان هو الآخر من بعيد يرقب ركوب عمه البحر، وحتى يستعجله القدوم أبان له عواقب الإبطاء، وما هي إلا لحظات حتى أطلّ عليهم حبوس قارعا طبوله، فخرجت صنهاجة عن بكرة أبيها تستقبله، ووقف حلالي بن زاوي فاغر فاه لا يدري ما يفعل وقد فسد تسيره، وبطل ما حاكه لابن أبي زمنين وصعد حبوس إلى قصبة غرناطة دون أن يعرج على ابن عمه حلالي.

وحتى يذيب حبوس عوامل الإخلال، ويقطع دابر الأحقاد والنزاعات في مستهلها ،خرج إلى ابن عمه حلالي الذي عاقبه على هذا الإعراض قائلا: «أهذا دخول مكتئب بفراق عشيرته ؟ هو

ولما وصل ذلك إلى صاحب مصر دبر في دخول العرب إلى إفريقية، فنسبوا البلاد ويتمنوا الأولاد، ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ص: 73-74، محمد الطمار، المغرب الأوسط في ظل صنهاجه، ديوان المطبوعات الجامعية، ص: 83.

65 ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 287، ابن خلدون.

66 ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 74.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

بدخول شامت أشبه !! كأنك فتحت بلدا وطردت عدوا ؟! ورد عليه حبوس وكان في غاية الانتشاء بما حازه من ملك، متبقيا بان الأمر قد صار إليه وقال: ما ذاك إلا لرسم الإمارة وإرهاب الرعية».[67]

إلا أن صاحب كتاب التبيان يظهر أن المؤامرة ضد زاوي وأولاده حيكت بليل، وقد شرع في نسج خيوطها منذ أن تفوه زيري بنية الرحيل إلى القيروان، ومما جاء في نص كتاب التبيان: «ثم خرج عن البلدة كأنه بقاء قودا فلم يخرج منها بمرحلة إلا وكتب مستخلفيه سائرة إلى حبوس بن ماكسن، يسفهون رأي زاوي ويقولون له أن يعجّل بالقدوم إلى البلد، وانّه أحق بولايته من غيره، قبل أن يطمع فيه من لا يرضونه أو يشره إليه من فغر فاه إليه بزوال زاوي عنه»[68] .

ويضيف ابن بلقين بأنّه ندم على ما كان منه، بعدما بلغه ما فعله مستخلفه ولامه أولاده على ذلك،[69]3 ولاشك أن زاوي قد تجرع الأمرّين عند نزوله القيروان فهو قد ضيّع ملكا بين يديه، وراح يبحث عن ملك قد صار لغيره من بني إخوته وعمومته، وحول نزول زاوي مدينة القيروان وموقف وزراء المعزّ وحاشيته، اختلف المؤرخون حول مصير زاوي.

فعبد الله بن بلقين يذكر أنه لما وصل زاوي القيروان وأحسّ بمذهبه بعض وزراء المعزّ نكروه وخافوا دواخله وتحكمه عليهم، وان يكدّر ما صفا لهم ،ورأوا أن ولاية المعزّ على طفولتيه، وعيشهم معه وتحكمهم عليه، أهون عليهم من تولي داهية مثل زاوي قد يفوت عليهم فرصا وحظوظا في ظل هذا الفتى المالك، ويضيف ابن بلقين انه تحاشيا لحدوث ما يتوقعونه منه، دسّ إليه من سقاه سما، فمات في تلك البلاد[70] في ظروف غامضة.

إلا أن ابن الخطيب يورد عن هذه الحادثة خلاف ما ذهب إليه عبد الله بن بلقين، ومما جاء في قول ابن الخطيب: «... وعبوره البحر بعد أن استأذن ابن عمه المعزّ بن باديس، فأذن له، وحرص بنوا عمه بالقيروان على رجوعه لهم لحال سنه وتقريبهم يومئذ من مثله من مشيختهم مهلك جميع إخوتهم، وحصوله هو على مقرر بني مناد الغريب الشأن في أن لا تحجب عنهم نساؤهم وكن زهاء ألف امرأة في ذلك الوقت هن ذوات محرم من بنات إخوته وبناتهن وبني بنيهن».[71]

ويعضّد هذا الرأي كل من ابن عذاري، وابن خلدون، فابن عذاري يذكر أن زاوي بن زيري الصنهاجي حلّ بالقيروان سنة 410هـ، 1019 فخرج إليه يوم وصوله شرف الدولة المعزّ بن

67 ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 287.
68 عبد الله بن بلقين، ص: 63.
69 نفسه، ص: 64.
70 عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 64.
71 ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة، ج1، ص: 296.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

باديس بزي عظيم، فترجل له الشيخ زاوي، ونزل شرف الدولة فسلم عليه، وسار معه حتى أنزله بالمنصورية[72] ويضيف ابن عذاري في نص لاحق انه ارتفع شأن زاوي بالقيروان وأقره المعزّ في دولته وكنفه.[73]

أما ابن خلدون، فيذكر بشيء من التفصيل عن مقام زاوي في كنف ابن أخيه بلقين ما نصه: «... وأنزل على المعزّ بن باديس حفيد أخيه بلكين أجل ما كانت دولتهم بأمر إفريقية، وأترف وأوسع ملكا، وأوفر عددا فلقبه المعز بأحسن أحوال البر والتجلة، وانزله ارفع المنازل من الدولة وقدمه على الأعمام والقرابة، وأسكنه بقصره وأبرز الحرم للقائه».[74]

وكان ابن بسام وهو من أرّخ لعهد الطوائف، ومع ما تميز كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) من نسوج أدبيه غالبة على محتويات كتابه، إلا انّه فصل في بعض المسائل التاريخية، وأبدع في طرحها مبينا مدى التّرحاب والتّجلة التي حظي بها زاوي في كنف أهله وذويه، وما خلّف وراءه من رغد العيش، وأوضاع استتبت له بعد عناء شديد أنفقه مع أتباعه، ومع ذلك آثر الرحيل يقول ابن بسام: «فأخذ في عبور البحر حين صفا العيش وأخضر عوده، وقمع العدو وفل غربه فصمم في الرحيل بعد أن استأذن صاحب افريقية يومئذ المعز بن باديس ابن عمه، في ذلك فأذن له وحرص جميع بني عمه بالقيروان على رجوعه لهم لحال سنه، وتعريهم يومئذ عن مثبله من مشيختهم بالمهلك جميع إخوتهم وحصوله هو قعدد بني مناد ... فرحل عن الأندلس سنة عشر وأربعمائة واستقلت به سفينة من مرسى المنكب، وفي شحنتها من ذخائر الأندلس ما يفوت الإحصاء كثيرة لعظيم ما خمسة أيام الفتنة، فاجتمع شمله بالقيروان وأقره المعز في دولته وكنفه».[75]

ولو ان المؤرخين اختلفوا حول دوافع ودواعي رحيل زاوي بن زيري إلى بلاده افريقية وكذا السنة التي بارح فيها سواحل غرناطة، فهم يتفقون حول علو همة هذا الرجل وحسن بلائه في الدفاع عن الكيان البربري الصنهاجي والزناتي في الأندلس وكيف انزوى بعنصر صنهاجة إلى ركن منيع في الجنوب، وبنى لهم فيه عزّ وسؤدد وظلّ هذا الركن حصنا منيعا لمن لاذ به وكان بذلك آخر معقل في الأندلس.

72 ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص: 269.
73 نفسه، ج03، ص: 128.
74 ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج06، ص: 239.
75 ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 286.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ومع ما سجلته أقلام المؤرخين عن سيرة هذا الرجل إلا أن التاريخ لم ينقل إلينا كثيرا من سيرته ومناقبه[76] وما أوردنا عنه في هذا البحث المتواضع هي مجرد نتوف وإيماءات منبثة هنا وهناك في ثنايا المصادر التي نحسب أن أصحابها اجتهدوا في التأريخ و التدوين، والقيام بعملية مسح للصناعة التاريخية للأمة العربية والإسلامية في الدولتين المغربية والأندلسية.

ومما يدل على شموخ وهمته العالية ما أورده صاحب المفاخر قول : «قلت وأخبار هذا الداهية غريبة وحروبه كثيرة، ومن أغربها أن المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر قائد وزارته، وكتب له بذلك عهدا قرئ على الناس فلما أعطي الزاوي أعرض عنه ولم يقبله، وقال لرسول عبد الملك الذي حمله إليه خطتنا الإمارة لا الإزارة وأقلامنا الرماح وصحائفنا الأجساد، أحمل قرطاسك لا حاجة لي به، فبلغ ذلك المظفر، فحقدها له، وقطع عنه الجراية، فأخرج من ذخائره إغلاقا نفيسة وذخائر عظيمة القدر فباعها وأنفقها على قومه صنهاجة، وربما اشترى منها المظفر في خفية».[77]

وما أورده صاحب الإحاطة من ثناء وإطراء عن شخصية زاوي ما تستحق الذكر: «وكان زاوي كبش الحروب، وكاشف الكروب، خدم قومه شهير الذكر أصيل المجد، المثل المضروب في الدهاء، والرأي، والشجاعة، والأنفة والحزم، أحكم التدبير، والدولة تسعده، والمقادير تنجده، وحكيت له في الحروب حكايات عجيبة».[78]

هذا وكانت وفاة زاوي بن زيري في أيام ابن عمه المعز بن باديس[79] وفي حقيقة الأمر فإن أيام زاوي انتهت وافل نجمه منذ رحيله عن الأندلس حين كانت الأحداث تجري، وهو من كان يقود بعضا من فصولها، وركدت ريحه في بلاد المغرب، وهو من كان ينوي بناء مملكة جديدة في القيروان.[80]

76 إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 42.
77 أبو علي صالح الايلاني، مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار ابي رقراق، الرباط،2008، ص: 228.
78 ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة، ج1، 294.
79 أبو علي صالح الإيلاني، نفسه، ص: 228.
80 Billal jj sarr ,Marocco , la Granada ziri 1013-1090 anadisis de una taifa andalusi editional de launiversidad de granada p.132